مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد01.العـدد: 03. السنة: 2019 ص 70– 84
ISSN 2661-765x

لطائف بلاغية في مشكلات التعقيبات القرآنية (دراسة وصفية تحليلية)

* أ. سهام داوي

كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الجزائر 1، الجزائر.

البريد الالكتروني: sihemdaoui75@gmail.com

ملخص البحث

يتميزُ القرآن الكريمُ عن سائر فنون القول بخصائص أسلوبيةٍ لا نجدها في غيره، على رأسها تسوير السور، وتقسيمها إلى آياتٍ، والصورةُ المحكمة التي جاءت عليها هذه الآياتُ مراعاة للتناسب بين المطالع والمقاطع، وتمكينا لها، وخاصة ما كان منها متشكّلا في قضيةٍ وحكمٍ يأخذ دور التعقيب، ويخدمُ مقاصد التعليلِ والوصفِ والإخبارِ في مسائل التشريعِ والعقيدةِ، وعند عرضِ أحوالِ الناسِ ومصائرِهم.

ولأسماء الله الحسنى في اقترانها بسياقاتها تناسبٌ بديع، فقد انتشرت في أعقاب الآياتِ وفق اختيار دقيق، يعلّل ويقرّر، ويصف ما كان حريا بها، ولو توهّم القارئ غيرَه، ممّا يحكم به بالنظرة السطحية القاصرة، قبل التدبّر الذي يقف به على المناسبة التامّة لما عقّب به الله تعالى، وهي من اللطائف البلاغية التي لا يتفطّن لها إلاّ ذوو الألبابِ والفهوم العميقة.

Abstract :

The Holy Quran is distinguished from all the arts of saying, with stylistic characteristics, which we can not find in other places, especially the division into verses, and the image of the court, in which these verses were brought to bear in mind. , And serves the purposes of explanation, description and news in matters of legislation and doctrine, and when the conditions of people and their destiny.

The names of God, the beautiful in the association with the context of a beautiful fit, has spread in the wake of the verses according to a precise

* المؤلف المرسل: أ. سهام داوي Sihemdaoui75@gmail.com

choice, explain and decide, and describe what was free, even if the reader's other, which is governed by the superficial view of the short, before the management that stands on the perfect occasion of what followed God Almighty, is one of the rhetorical blunders, which is not noticed only by the people of hearts and deep understanding.

يدخلُ التناسبُ بين مطالعِ الآياتِ وخواتيمها فيما يسمّى "تشابه الأطراف" أو "مراعاة النظير"، وهو "أن يُختتم الكلامُ بما يناسبُ أوّله في المعنى"[1]، حيث يتوخى أهلُ التفسيرِ والبلاغةِ النظرَ في مناسبةِ الخواتيم لما تقدّمها من صدور الآيِ، لما في العلاقةِ من أسرار دقيقةٍ، ومعاني لطيفةٍ.

ولا يكادُ الاستعمالُ اللغوي والقرآني لمادة (ع ق ب) في مختلفِ صيغِها يخرج عن معنيين يبسطهما أصحاب المعاجمِ بالتوسّع أو التضييق، هما:

ـ الدلالةُ على آخرِ الشّيء ونهايتِه، وخِتامه..

ـ والدّلالة على التوالي بين شيئين[2].

ويخدمُ كلا المعنيينِ مفهومَ التعقيبِ القرآني، فهو لا يخرجُ عن أن يكون مقطعاً لآيةٍ، أو ختاماً لسورةٍ، أو مركزا بين مقطعين يحيلُ التالي فيهما على السابقِ

ونقف في القرآن الكريم على تعقيبات لا يُدرك التناسب بينها وبين السّياقِ الذي جاءت فيه للوهلةِ الأولى، ولا يتسنّى الربط بينها وبين ما سبقها إلاّ بعد تدبّرٍ وتأمّلٍ، وهو ما ارتأينا تسميتَه (مشكلات التعقيبات) سيرًا على ما أطلقه (السّيوطي) عليها بغيرِ مصطلحِها، وبذاتِ المعنى، حيث

[1] – الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، 490/2.

[2] – يُنظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (ع ق ب)، 77/4، ولسان العرب لابن منظور، 616/1.

سمّاها (مشكلات الفواصل)، "والسّببُ في ذلك واضحٌ، وهو أنّ الكثيرَ من مواطنِ التشابهِ اللّفظي في القرآن الكريم يقع في خواتيم الآياتِ، خصوصاً إذا كانت في أسماء الله تعالى كالعزيز الحكيم، والغفور الرّحيم وما شابه ذلك، أو إذا كانت في وصفِ الأقوامِ، مثل: لقوم يعلمون، أو يتفكّرون، أو يعقلون، أو إذا كانت في وصف العذابِ مثل: عذاب عظيم، أو أليم، أو شديدٌ، كلُّ هذه الخواتيم تستحقُّ النظر والتأمّل، خصوصاً حين تردُ الآياتُ المتشابهةُ بخواتيم مختلفة"[1]

ويخدمنا كثيراً هذا الجانب في الدّراسةِ المفاهيمية للتعقيباتِ، فالتعقيبُ شأنه شأن سائرِ مكوّناتِ النص القرآني من سور وآياتٍ محفوظٌ من الله تعالى، ومعصومٌ عن التصرّفِ البشري، وما من لفظةٍ قرآنيةٍ إلاّ وهي مناسبةٌ لمكانها كما نزلت، بلا تبديلٍ ولا تغييرٍ، كما أنّ التعقيبات ليست حشوا في الآياتِ، وزيادةً عليها، بل هي أقفالٌ تمكّن للمعاني على ما توضّحه لنا مشكلات التعقيباتِ التي لا تظهر علاقتها بمطالعها إلاّ بالنظرِ المتمعّن .

أوّلا: مشكلاتُ التعقيب بصفتي العزّة والحكمة

نقف مع هذه الظاهرة في قوله تعالى: ﴿ **سح سخ سم صح صخ صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم** ﴾(البقرة 209)، فمطلعُ الآيةِ يحملُ إشارةً إلى ذنبهم وجرمهم، فكيف يناسبُ التعقيبُ بالعزّةِ والحكمةِ جوَّ الآيةِ؟ وهل هو أنسبُ من التعقيبِ بالمغفرةِ والرّحمةِ رجاءَ التوبةِ بعد الزّللِ؟

[1] – البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي، إبراهيم بن عبد العزيز الزيد،، ص472.

يقول (أبو حيان):" وفي وصفه بالعزّةِ التي هي تتضمّنُ الغلبةَ والقدرةَ اللتين يحصلُ بهما الانتقامُ وعيدٌ شديدٌ لمن خالفه، وزلّ عن منهجِ الحقِّ، وفي وصفِه بالحكمةِ دلالةٌ على إتقانِ أفعالِه، وأنَّ ما يرتُّبه من الزواجرِ لمن خالفَ هو مقتضى الحكمة"[1]، ويقف (الرازي) كذلك عند مناسبةِ هذا التعقيبِ فيقول:" إنَّ العزيزَ لا يُمنع من مرادِه، وذلك إنّما يحصلُ بكمالِ القدرةِ، وقد ثبت أنه سبحانه وتعالى قادرٌ على جميعِ الممكناتِ، فكان عزيزًا على الإطلاقِ، وأتبعه بقوله (حكيم)، فإنّ اللائقَ بالحكمةِ أن يميّزَ بين المحسنِ والمسيءِ، فكما يحسنُ من الحكيمِ إيصالُ العذابِ إلى المسيءِ، فكذلك يحسنُ منه إيصالُ الثوابِ إلى المحسنِ، بل هذا أليقُ بالحكمةِ، وأقربُ للرّحمةِ"[2]

ولم يفوّت (البقاعي) هذا التعقيبَ في تحليله تدليلاً على تمكُّنه من مكانه، فقال:"ولما كان الخوفُ حاملاً على لزومِ طريقِ السّلامةِ قال (فاعلموا) فإنّ العلمَ أعونُ شيءٍ على المقاصدِ، (أنّ الله) الحاوي لصفاتِ الكمال، (عزيز) لا يعجزُه من زلَّ، ولا يفوته من ضلَّ، (حكيم) يبرمُ ما لا يقدرُ أحدٌ على نفضِ شيءٍ منه"[3] فشرعُ اللهِ محكمٌ لا خللَ فيه، والله تعالى بعزّته قادرٌ على الانتقامِ من المخالفين، ومسيطرٌ عليهم، فلا يفلتون من العقابِ بحالٍ.

كذلك يلتبسُ الأمرُ في قوله تعالى:ﱡ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ (المائدة 38)، وقد رُوي عن الأصمعي أنه قال: كنت أقرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله غفور رحيم) وبجنبي أعرابي، فقال: كلامُ من هذا؟ قلت: كلامُ الله، قال: ليس هذا كلام الله، فانتبهتُ، فقرأتُ:ﱡ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ، فقال: أصبتَ، هذا كلامُ الله، فقلتُ: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: من أين

[1] – البحر المحيط، أبو حيان، 132/2.

[2] – مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 228/5.

[3] – نظم الدرر في تناسب الآي والسور، برهان الدين البقاعي، ص325.

علمتَ؟ قال: يا هذا، عزّ، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع"[1] فالمقام هنا مقام عقاب وتهديد لا تناسبه المغفرة والرّحمة، وإلاّ لما شرعت العقوبة ابتداء، ولكنّ "الأعرابيَّ أصاب حيث توصّل إلى النتيجة، فيما لم يصب في الطريقةِ والمنطق الذي توصّلَ به إليها، فتعليلُ الأعرابي لم يكن على قدرٍ من الدقّةِ والتوفيقِ حينما قال: عزّ، فحكمَ، فقطعَ، لأنّه فهم أنّ الحكيمَ بمعنى أصدر حُكمًا، والأمرُ ليس كذلك، لأنّ الحكيمَ فيه معنى التعليلِ للقطعِ، كأنّ قائلا قال: ولماذا كان القطع؟ ولم يكن شيئا آخر؟ قيل: لأنه حكيم، يعلم ما انطوت عليه النفوس، وما يصلح من عقوبات رادعة لها.. وكان من الممكن أن يصلحَ للتعليلِ أن يقول: عزّ فقطعَ، لأنّ له حكمٌ، وعلى كلٍّ فإنَّ هذا الأعرابيَّ أدركَ بسليقتِه أنَّ الختمَ بـ (الغفور الرحيم) لا يناسب سياق الآية"[2]

وفصّل (الطبري) في تفسيره تناسبَ الصفتين مع مضمون الآية فقال:"والله عزيز في انتقامه من هذا السّارقِ والسّارقةِ وغيرهما من أهلِ معاصيه، حكيمٌ في حكمِه فيهم، وقضائه عليهم"[3]، فالعزّةُ تأتي في سياقِ ذكرِ قدرةِ اللهِ تعالى على إنزالِ الفعلِ، وقهرِ معانديه، ولا يكونُ ذلك إلا بحكمتِه البالغةِ ظهرت لنا أو لم تظهر، ويتجلّى من هذه الدقّةِ في انتقاءِ ألفاظِ التعقيبِ رسوخُ المعنى من خلالها، "فالقاعدةُ الأساسية في فواصل الآيات (تعقيباتها) أنّ فاصلة الآيةِ متوافقةٌ مع كلماتِها، ومتناسبةٌ مع موضوعِها، وأنّ ختامَ الآيةِ بالفاصلةِ يكون ختامًا موضوعيًّا متناسبًا معها"[4]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ **كل كم كى كي لم لى لي ما مم نر نز نم نن ني ىٰ ير يز يم ين يى يي ئج ئح ئخ ئم ئه** ﴾ (التوبة 71)، وتعتبرُ من الآياتِ التي

[1] – البحر المحيط، 483/3.

[2] – الإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات المشتملة على أسماء الله الحسنى، عاطف رجب القانوع، ص181.

[3] – جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، 569/4.

[4] – إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح الخالدي، ص320.

يشكلُ فيها التناسبُ بين التعقيبِ وسياقِه، فقوله تعالى (أولئك سيرحمهم الله) يحيلُ التوقُّعَ إلى التعقيبِ بصفتي المغفرةِ والرّحمةِ، أو الرأفةِ والرّحمةِ، ولكنها اختُتمت بصفتي العزّةِ والحكمةِ، لكن حسُن تدبُّر الآيةِ، فتأكيدُ رحمته تعالى لهم بسين الاستقبالِ يُغني عن إعادةِ ذكرِها في التعقيبِ، وإنما ناسبَ المقامَ التعقيبُ بعزّةِ اللهِ على سبيلِ الطمأنةِ لمضاءِ رحمتِه التي وعدَ بها، وحكمتِه على سبيلِ ضمانِ إنجازِها على النحوِ الأنسبِ، قال (الرازي):" إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ، وذلك يوجبُ المبالغةَ في الترغيبِ والترهيبِ، لأنّ العزيزَ هو من لا يمنعُ من مرادِه في عبادِه من رحمةٍ أو عقوبةٍ، والحكيمُ هو المدبّرُ أمرَ عبادِه على ما يقتضيه العدلُ والصوابُ"[1]

فتأمّل في دقّةِ التعقيبِ ، وتدبّر، ولن تعودَ إلاّ بيقينٍ في بلاغةِ القرآنِ الفائقةِ، ومناسبةِ مقاطعه لمطالعه بما يتعذّرُ نيابةُ غيره عنه ولو التبس علينا الأمرُ في قراءتنا الظاهريةِ للآيةِ، فإنّ الغوصَ في معاني الآياتِ وسياقاتِها يكشفُ لنا عن تمكّن التعقيباتِ من أماكنها.

ثانيا: مشكلات التعقيب بصفتي المغفرة والرحمة

قال تعالى: ﴿ **فى في قى قي كا كل كم كى كي لم لى لي ما مم نر نز نم نن ني ىٰ ير يز يم ين يى يي** ﴾ (البقرة 173)، والإشكالُ في ختمها بـ (الغفور الرّحيم) بدل (العزيز الحكيم)، وفي ذلك يرى (الرازي) وجوها:[2]

أحدها: أنّ المقتضي للحُرمةِ قائمٌ في الميتةِ والدمِ، إلاّ أنه زالت الحرمةُ بقيامِ المعارضِ، فلمّا كانَ تناولاً لما حصلَ فيه المقتضي للحرمةِ، عبّر عنه بالمغفرةِ، ثم ذكر بعده أنّه رحيمٌ، يعني لأجلِ الرّحمةِ عليكم أبحتُ لكم ذلك.

[1] – مفاتيح الغيب، 135/8.

[2] – مفاتيح الغيب، 73/5.

ثانيها: لعلّ المضطرَّ يزيدُ على تناولِ الحاجةِ، فهو سبحانه غفورٌ بأن يغفرَ ذنبَه في تناولِ الزّيادةِ، رحيمٌ حيثُ أباحَ في تناولِ قدرِ الحاجةِ.

ثالثها: أنه تعالى لما بيّن هذه الأحكامَ عقّبها بكونه غفورًا رحيمًا، لأنّه غفورٌ للعصاةِ إذا تابوا، وبالمطيعين المستمرّين على نهجِ حكمِه سبحانه وتعالى.

ويعلّل (أبو حيان) الختمَ بصفتي المغفرةِ والرّحمةِ في ثلاثةِ أسبابٍ:" لما ذكرَ أشياءَ اقتضى المنعَ منها، ثم ذكر إباحتَها للمضطرِّ في تلك الحالةِ المقيِّدةِ له أتبع ذلك بالإخبارِ عن نفسه بأنه تعالى (غفور رحيم)، لأنّ المخاطَب بصددِ أن يخالفَ فيقعَ في شيءٍ من هذه المحرّماتِ، فأخبر بأنّه (غفور) للعصاةِ إذا تابوا، (رحيم) بهم، أو لأنّ المخاطبَ اضطرَّ فأكلَ ما يزيدُ على قدرِ الحاجةِ، فهو تعالى (غفور) له ذلك، (رحيم) بأن أباحَ له قدرَ الحاجةِ، أو لأنّ مقتضى الحرمةِ قائمٌ في هذه المحرّماتِ، ثمّ رخّص في تناولها من قيامِ المانعِ عن هذا الترخيصِ والإباحةِ بالمغفرةِ، ثم ذكر بعد الغفرانِ صفةَ الرّحمةِ"[1]

ويعلّل (البقاعي) هذه المناسبة من جانبه بالترغيب والترهيب في ظلال المعنى للصفتين:" علّل هذا الحكمَ مرهّبا مرغّبا بقوله (إنَّ الله) فأتى بهذا الاسمِ المحيط إشارةً إلى عمومِ هذا الحكمِ للمضطرِّ والموسعِ، وفي قوله (غفور) إشعارٌ بأنه لا يصلُ إلى حال الاضطرارِ إلى ما حُرّم عليه إلا عن ذنبٍ أصابه، فلولا المغفرةُ لتُمِّمت عليه عقوبتُه.. وفي قوله (رحيم) إنباءٌ بأنَّ من اضطرَّ فأصابَ ممّا اضطرَّ إليه شيئا لم يبغ فيه، ولم يعد تناولُه من الله رحمةَ توسعةٍ من أن يضطرَّ بعدها إلى مثله فيغفر له

[1] – البحر المحيط، 665/1.

الذنبَ السابقَ الذي أوجبَ الضرورةَ، وينالُه بالرّحمةِ الموسّعةِ التي ينال بها من لم يقع منه ما وقعَ ممن اضطرَّ إلى مثله"[1]، فالعفو والغفران يشملان من كان من المضطرين والموسّع عليهم.

ويشكلُ من التعقيباتِ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لخ لم لى لي مج مح مخ مم مى مي نج نح نخ نم نى ني هج ﴾ (البقرة 182)، لأنّ المعتادَ عليه هو اقترانه بالآياتِ التي تتحدّثُ عمّا لا يجوزُ إثباتُه من الأفعالِ، ولا يدخلُ فيه الإصلاحُ، ويرى (الرّازي) في مناسبةِ تعليل الآيةِ بهذا التعقيبِ ثلاثةَ وجوهٍ:

أحدها: أنّ هذا من بابِ تنبيهِ الأدنى على الأعلى، كأنه قال: أنا الذي أغفرُ الذنوبَ ثم أرحمُ المذنبَ، فلئن أوصل عذابي إليك مع أنك تحمّلت المحن الكثيرةَ في إصلاحَ هذا المهم كان أولى.

وثانيها: يحتملُ أن يكون المرادُ أنَّ ذلك الموصي الذي أقدمَ على الجنف والإثم متى أصلحت وصيّته فإن الله غفورٌ رحيمٌ يغفرُ له ويرحمُه بفضله.

وثالثها: أنَّ المصلحَ ربما احتاجَ في إيتاءِ الإصلاحِ إلى أقوال وأفعال كان الأولى تركُها فإذا علمَ تعالى منه أنَّ غرضه ليس إلّا الإصلاح فإنه لا يؤاخذه بها لأنه غفورٌ رحيم"[2]

أما (البقاعي) فيصرفُ الصّفةَ إلى المجتهدِ في بيانِ الحكمِ:" ولما كان المجتهدُ قد يخطئ، فلو كان أوخذَ بخطئه أحجمَ عن الاجتهادِ جزاه الله سبحانه عليه بتعليلِ رفعِ الإثمِ بقوله (إنّ الله غفور رحيم) إعلامًا بتعميمِ الحكمِ في كلِّ مجتهدٍ"[3] ، فالتعقيبُ مناسبٌ لحالة الهمّ بأمرٍ محرّمٍ دونِ التنفيذِ، من خلالِ تنبيه الموصي والموصى له، ومن حضرَ الوصيةَ، واجتهدَ في ذلك.

[1] – نظم الدرر في تناسب الآي والسور، 318/1.

[2] – مفاتيح الغيب، 73/5.

[3] – نظم الدرر، 336/1.

وجاء في موضع آخر: ﴿ ٱ ى ي ﴾(الفرقان 6) وهو تعقيبٌ استرعى اهتمامَ المفسّرين لما يشكلُ من مناسبته لسياقِه، حيث يقول(الزمخشري):" لما كان ما تقدّمه في معنى الوعيدِ عقّبه بما يدلُّ على القدرةِ عليه، لأنّه لا يوصف بالمغفرةِ والرّحمةِ إلاّ القادر على العقوبةِ، أو هو تنبيهٌ على أنّهم استوجبوا بمكابرتِهم هذه أن يصبَّ عليهم العذابَ صبّا، ولكن صرف ذلك عنهم (إنه غفور رحيم)، يمهلُ ولا يعاجلُ"[1] ، أمّا (الرّازي) فيرى المناسبةَ لوجهين:

الأول: أنه لما أنزله لأجل الإنذارِ، فوجبَ أن يكونَ غفورًا رحيمًا، غير مستعجلٍ في العقوبة.

والثاني: أنه تنبيهٌ على أنهم استوجبوا بمكايدتِهم هذه أن يصبّ عليهم العذابَ صبّا، ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما، يمهل ولا يعجّل"[2]

ويبحثُ الدكتور (أحمد أبو زيد) عن المناسبةِ في الاقترانِ من ناحيتيها المعنويةِ والإيقاعيةِ فيقولُ:" إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختارَ للقرآنِ ترتيلا تبدو فيه نغمةُ ألفاظه ورنينُها وجرسُها، فلا بدّ من أن تكون ألفاظُه قد اختيرت لمزيّةٍ في كلِّ كلمةٍ، لا في مجموعِها ونظمِها فحسب، وهذا الحكمُ إن كان ينطبقُ على سائرِ ألفاظِ القرآنِ الكريمِ فإنه ينطبقُ بالأحرى على الكلماتِ التي تقع في فواصلِ الآيات، فهذه أولى بالعنايةِ لأنها تجمع بين الوظيفتين: المعنوية والإيقاعية، وبلاغةُ الكلام تقتضي أن يراعى في اختيارِها أن تكون قادرةً على الوفاءِ بحق المعنى، وحق التناسب الإيقاعي في آنٍ

[1] – الكشاف، الزمخشري، 207/3.

[2] – مفاتيح الغيب، 52/24.

واحدٍ"[1] فحيثُما وجّهتَ اهتمامكَ وقفتَ على التناسقِ العجيب، والتموضعِ البديعِ لألفاظِ القرآنِ الكريمِ، وتراكيبِه، فلا هي تنفرُ عن المعنى، ولا هي تشذُّ بالإيقاعِ، بل تجمعُ الدقّةَ من أطرافِها.

ثالثا: مشكلات التعقيب بصفتي العلم والقدرة

ممّا يشكلُ من التعقيباتِ في القرآن الكريمِ ما يأتي فيه تأكيدُ إحاطةِ علمه تعالى في سياقٍ نتوهّمُ أنّه يستدعي القدرةَ، ومنه قوله تعالى:ٱ **خج خم سج سح سخ سم صح صخ صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم** لج لح لخ لم له مج ّ (البقرة 28-29) وهنا اكتفى بعض المفسّرين بتعليلِ الختمِ بالعلمِ المطلقِ، فقال (الرازي):" يدلُّ على أنّه سبحانه وتعالى لا يمكنُ أن يكون خالقًا للأرضِ وما فيها، وللسّمواتِ وما فيها من العجائبِ والغرائبِ إلاّ إذا كان عالمًا بها، محيطًا بجزئياتِها وكلّياتِها"[2]، أمّا (أبو حيان) فقد ذهبَ تعليلُه للتعقيبِ بمطلقِ العلمِ بدل مطلقِ القدرةِ إلى التراجعِ في بحثِ التناسبِ إلى الآية السّابقةِ عنها، فقرّر أنّ التعقيبَ جاء في منتهى المناسبةِ لموقعِه، "لأنّ تقدّم ذكرِ خلقِ الأرضِ والسّماءِ، والتصرّفِ في العالم العلويِّ والسُّفليِّ، وغيرِ ذلك من الإحياءِ والإماتةِ ثمّ الإحياءِ، كلّ هذا يدلُّ على صدورِ تلك الأشياءِ عن العلم الكاملِ التامِّ المحيطِ بجميعِ الأشياء"[3]

وانتهج (البقاعي) نهجًا خاصًّا بجعلِ العلمِ هنا بمعنى القدرة فقال:" لما كانَ الخلقُ على هذه الكيفيةِ دالاً بالبديهةِ على أتمِّ قدرةٍ لصانعِه، وكان العلمُ بأنَّ مبنى ذلك على العلمِ محتاجاً إلى تأمّل،

[1] – التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، ص356.
[2] – مفاتيح الغيب، 173/2.
[3] – البحر المحيط، 453/1.

اعتنى في مقطعِ الآيةِ بقوله (وهو بكل شيء عليم)، أي وهو على كل شيء قدير"[1] وهو وجهٌ للربطِ بين التعقيبِ وسياقِه، غيرَ أنّ ما سبق ذكره من التّعليلِ أقوى منه.

وتشكلُ مناسبةُ التعقيبِ على العكسِ في قوله تعالى:"ٱ **خج خم سج سح سخ سم صح صخ صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم لج لح لخ لم له مج مح مخ مم نج نح نخ نم نه هج هم هٰ يج يح يخ يم يه ئم ئه بم به** "(آل عمران 28-29)، فهذا التعقيبُ بمطلقِ القدرةِ ممّا يخطئه التخمينُ لو اكتُفي بمطلع آيته، فإنّ حصرَ النظرِ في الآيةِ الثانيةِ يقودُنا إلى توهّم مناسبةِ التعقيبِ بالعلمِ، غير أنّ النظرَ في السّياقِ يحيلُنا إلى الأنسبِ الذي انتقاه القرآنُ الكريمُ، وهو التعقيبُ بالقدرةِ، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياءَ من دونِ المؤمنين لا يكونُ إلاّ بزعمِ المتّخذِ أنّ الكافرَ يملكُ ويقدرُ على ما لا يقدرُ عليه المؤمنُ من نفعٍ، ولذا حذّرَ اللهُ من يفعلُ ذلك، منبّهًا إلى أنّ مصيرَهم إليه، فكان التعقيبُ بالقدرةِ مناسبًا للمقامِ، يقول (الرازي):" وذلك لأنه لما بيّن أنه تعالى عالمٌ بكل المعلومات كان عالما بما في قلبه، وكان عالماً بمقاديرِ استحقاقه من الثوابِ والعقابِ، ثمّ بيّن أنه قادرٌ على جميعِ المقدوراتِ، فكان لا محالةَ قادرًا على إيصالِ حقِّ كلِّ أحدٍ إليه، فيكونُ من تمام الوعدِ والوعيدِ، والترغيبِ والترهيبِ"[2]، ويقول (الطوفي)[3]:"قوله (والله على كل شيء قدير) في بادئ الرأي غير مناسب لما في الآية من قوله تعالى (يعلمه الله ويعلم) لأنّ هذا يقتضي أن تكونَ فاصلتُه (والله بكل شيء عليم) غير أنه مع النظرِ مناسبٌ بتقديرِ محذوفٍ، أي يعلمُ ما تخفون وما تبدون، فيجازيكم عليه ثوابًا وعقابًا، وهو قادرٌ على جزائِكم، لأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولا شكّ أنّ المجازاة تحتاج إلى قدرةٍ،

[1] – نظم الدرر، 83/1.

[2] – مفاتيح الغيب، 16/8.

[3] – هو سليمان بن عبد الله القوي بن عبد الكريم الصرصري (657-716هـ) (ينظر الأعلام للزركلي: 189/3)

ويحقّقُ ذلك أنه في سياقِ الوعيدِ على موالاة الكفارِ"[1]، فينبغي على المؤمنِ أن يلجأ إلى قدرتِه تعالى، وأن يستظلَّ بها، وألاّ يوالي أعداءه الكافرين، إذ لا قدرةَ لهم على نصرِه، وإنّما القادرُ هو الله،" فاتخاذُ المؤمنين الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين إنما يكونُ لزعمهم قدرةَ الكافرين على نفعٍ لا يملكه المؤمنون لهم، فحذّر اللهُ من يفعلُ ذلك من المؤمنين، وبيّن لهم أنّ إليه مصيرَهم للحسابِ، وأنّه قديرٌ على استظهارِ ما تخفي صدورُهم لشمولِ علمه ما خفي وما أُعلن، بل إنّ علمه تعالى محيطٌ بما في السّمواتِ وما في الأرضِ لشمولِ قدرته كلَّ شيءٍ"[2] فاستظهارُ قدرته تعالى في هذا المقامِ أولى وأنسب.

وممّا يلتبسُ على المفسّرِ فهمُ مناسبتِه من التّعقيباتِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور 10) حيث جاء التعقيبُ هنا على آياتِ الزنا، ورميِ المحصناتِ، والملاعنةِ بين الزوجين، وقد يتساءلُ القارئ لهذا التعقيبِ عن العدول عن قرنِ التوبةِ بالرّحمة إلى الحكمة، لأنّ الرّحمةَ مناسبةٌ للتوبةِ، لكن للمقامِ خصوصيّته، يقول (ضياء الدين بن الأثير):" فإنه قد وردت الفاصلةُ في غيرِ هذا الموضع بـ (تواب رحيم)، ويظنّ الظانّ أنّ هذا كذلك، ويقول: إنّ التوبة مع الرّحمةِ لا مع الحكمةِ، وليس كما يظنّ بل أنّ الفاصلة بـ (تواب حكيم) أولى من (تواب رحيم)، لأنّ الله عز وجل حكم بالتلاعنِ على الصورةِ التي ذكّرَ بها، وأراد بذلك سترَ هذه الفاحشة على عباده، وذلك حكمة منه، ففصّلت الآيةُ الواردةُ بـ (تواب حكيم)، فجمع بين التوبة المرجوة من صاحب المعصيةِ، وبين الحكمةِ التي سترها على تلك الصورة"[3] وفي تقريرِ دقّةِ التناسبِ في سائرِ تعقيباتِ القرآنِ الكريمِ يقول (السيوطي):"لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجرّدها، إلا مع بقاء المعاني على سردها، على المنهج

[1] – قطف الأزهار في كشف الأسرار، جلال الدين السيوطي، 579/1.

[2] – البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، عبد الفتاح لاشين، ص41.

[3] – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، 165/3.

الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، فأمّا أن تُهمل المعاني ويُهتمّ بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤدّاه فليس من قبيل البلاغة"[1]

ونختم في سياق هذه المناسبات القوية للتعقيبات بمواضعها بآيتين من سورة (الفتح) يتحد فيهما المطلع، ويختلف المقطع، وذلك في قوله تعالى:

ٱُّ ىٰ ٌّٰ ٍّ َّ ُّ ئر ئز ئم ئن ئى ئي بر بز بم بن بى بي تر َّ (الفتح 4)

ٱُّ بهتج تح تخ تم ته ثم جح جم َّ (الفتح7)

والملاحظ على الآيتين اقتران حكمته تعالى بعلمه في الأولى، وبعزته في الثانية، مع اتّحاد الجملة السّابقة لهما (ولله جنود السموات والأرض)، ولهذا التغيير في ألفاظ التعقيب مناسبة دقيقة يعلّلها (الكرماني) بقوله:" لأنّ الأوّلَ متصلٌ بإنزال السّكينةِ، وازدياد إيمان المؤمنين، فكان الموضعُ موضعَ علمٍ وحكمةٍ، وأما الثاني فمتّصلٌ بالعذابِ والغضبِ وسلبِ الأموالِ والغنائمِ، فكان الموضعُ موضعَ عزٍّ وغلبةٍ وحكمةٍ"[2]

ونخرج من كل هذه النماذج القرآنية بقاعدة راسخة في مناسبة التعقيبات القرآنية لمواضعها، فهي قد تُظهر لنا للوهلة الأولى تناسبها مع سياقها، بينما قد يخفى ذلك مع آياتٍ أخرى تحتاج إلى تدبّر وتأمّل، وفي كل الحالات لا يشذّ تعقيبٌ عن التناسبِ مع مطلعه، ولا يخرج عن سياقِ موضعه، فالتناسبُ عمومًا، وتناسبُ التعقيباتِ على وجه الخصوصِ يقفُ بالمتدبّرِ للقرآنِ الكريمِ على اتّساقِ المعاني، ويتيح لنا الوقوفَ على إحكامِ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وانتظام كلامه، وهي الظاهرة التي نبّه

[1] – الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، 359/3.

[2] – أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ص182.

إليها (الباقلاني) مبكّرا بقوله:" فأجل الرأيَ في سورةٍ سورةٍ، وآيةٍ آيةٍ، وفاصلةٍ فاصلةٍ، وتدبّر الخواتمَ والفواتحَ، والبواديَ والمقاطعَ، ومواضعَ الفصلِ والوصلِ، ومواقع التنقّل والتحوّل، ثمّ اقضِ ما أنت قاضٍ"[1] وهو تقرير يحوم في مجمله حول التعقيباتِ باعتبارها خواتم لفواتح الآيات، ومقاطع لبواديها، ومواضع يصنع الفصلُ والوصلُ معانيها، وتتيح التحوّل من موضوع إلى آخر ضمن السّورةِ الواحدةِ.

مصادر ومراجع الدراسة

❖ القرآن الكريم

1. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، طبعة الأوقاف السعودية، 1426هـ.
2. أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
3. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، دار المعارف، مصر.
4. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، عبد الفتاح صلاح الخالدي، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، 2000م.
5. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.
6. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
7. البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.

[1] – إعجاز القرآن،الباقلاني، ص193.

8. البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، 2010م.

9. التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992م.

10. جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة.

11. قطف الأزهار في كشف الأسرار، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد بن محمد الحمادي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، 1994م.

12. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

13. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، دار نهضة مصر، القاهرة.

14. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1981م.

15. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م

16. نظم الدرر في تناسب الآي والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، 1984م.

- **الرسائل العلمية:**

17. الإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات المشتملة على أسماء الله الحسنى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2006م.